المبحث الثاني

أصول بلاغية تائهة

من كلام أوائلنا رضوان الله عليهم ما يشير إلى أن البلاغة تكون في الفهم والتذوق كما تكون في النطق والإفهام ، وأن الآخذ عنك شريك لك في الذي تكتب وتقول .

روى الجاحظ عن الإمام إبراهيم بن محمد العلوي الهاشمي قوله « يكفي من حظ البلاغة ألاَّ يُؤتَى السامعُ من سوء إفهام الناطق ، ولا يؤتى الناطق من سوء فهم السامع » انتهى كلام الإمام وعقب عليه أبو عثمان بقوله « أمَّا أنا فأسْتَحسِنُ هذا القول جدًّا » .

وهذا معناه أن المتكلم الجيد إذا ابتلي بقارئ سيئ يكون حاله كحال مستمع جيد ابتلي بمتكلم سيئ ، وأن السيئ من الطرفين المتكلم والسامع يدمِّر البلاغة ، ويكون وبالاً عليها ، وأن البلاغة لا تتوفر لها الحياة بشعراء جيدين ، وكُتّاب جيدين فحسب ، وإنما لا بد لها من جمهور من المتذوقين ، يعرفون للكلام حقه ، وينفذون إلى لُبِّه وسره ، والمغزى منه ، وأن الكلام العالي إذا عُلِّق في الهواء ، ولم يجد قلوبًا يَقَرُّ فيها وتعالجه ، وتدارسه ، يصير إلى مَضْيَعةٍ ، وهذا يوجب أن تكون العناية بتربية القدرة على الفهم ،

والتحليل ، والتذوق عِدلَ تربية القدرة على الإبداع ، والإنشاء ، والابتكار ، ولم يوجد أدبٌ حيّيٌّ بين غافلين ، سادرين ، ولابُدَّ أن نراجع فهمنا لتاريخ الأدب ، وأن نعلم دائمًا أن هناك توازنًا دقيقًا في عصور التاريخ بين القدرتين ، القدرة على الإبداع ، والقدرة على الفهم والتحليل ، والتذوق ، التي هي القدرة على النقد ، ويستحيل أن تكون رائعة امرئ القيس (قفانبك من ذكرى حبيب) قيلت في قوم تقِلُّ قدراتهم في التذوق ، والتحليل ، عن المستوى الذي تتطلبه هذه الرائعة ، ويستحيل أن يوجد النابغة وزهير في قوم تقِلُّ قدراتهم على حسن الوعي ،بما في الشعر عن المستوى الذي تتطلبُه روائعهم ، وهكذا قل في زمن جرير والفرزدق والبحتري والمتنبي ، وأبي العلاء ، وشوقي وحافظ ، ومحمود حسن إسماعيل ، وكلمة الإمام إبراهيم بن محمد تقول إن القائل النابه والمستمع النابه هما رِئتا البلاغة ، والبلاغة لا تعيش برئة واحدة .

وقد كرر الجاحظ هذا الكلام الذي استحسنه وأضاف إليه وقال « مدار الأمر على البيان والتبيين ، والإفهام والتفهيم ، وكلما كان اللسان أبين ، كان أحمد ، كما أنه كلما كان القلب أشد استبانة ، كان أحمد ، والمفهم لك ، والمتفهم عنك شريكان في الفضل إلا أنَّ المفهم أفضل »[1].

الجاحظ يضع التبيين قرين البيان ، والتفهيم قرين الإفهام ، والمُتَبيّن والمُتفهم لا يُعَدَّ مُتَبَيّنًا ولا مُتَفهمًا إلا إذا تفهّم دقائق أسرار البيان ، والتبيين الذي هذا حاله عدل البيان ، والتفهيم بهذا الوصف عدل الإفهام ، والمتذوق المحسن للتذوق شريك للمبين المحسن للبيان ، ولسان المبين في كلام

(١) البيان والتبيين ٢٩/١ .

الجاحظ يقابله قلب المستبين ، واللسان لا يكون أشد بيانًا إلا إذا امتلك ما يبين عنه ، من معنى وما يبين به من لغة ، والقلب لا يكون أشد استبانة إلا إذا كان قادرًا على أن يحوز هذا كله ، وأن يتفقده ، وأن يقضي فيه ، وما دامت هناك شركة بين المفهم والمتفهم فإن كل دراسة جادة ، ويقظة ، لكل قصيدة أو أي عمل أدبي آخر قديمًا كان أو محدثًا هذا جزء من هذا العمل ، ومن تمامه ، وتوضع معه ، ولو استطعنا أن نجمع كل شروح القصيدة وما كتب عنها ووضعناها مَعَها في سِفْرٍ واحد لكان ذلك تحقيقًا لمراد الجاحظ ، ومن حق الشركة ، ولكن بشرط أن يكون كل شرح هو من تمامها ، يعني فيه كشف لجوانب من جوانب صَنْعتها ، لا يوجد في غيره ، وليس كلامًا مكررًا ، وأن يكون من الشروح حَوليٌّ محككٌ كما كان من الشعر ، وهذا يعني وجود حياة أدبية أكثر اجتهادًا ، وأكثر كشفًا ، وأكثر تنظيمًا ، ويدلك على حرص الجاحظ على وجوب هذا الربط بين إنشاء الأدب والقدرة على كشف مكنوناته ، وغوامضه ، أنه سَمّى كتابه البيان والتبيين ، وكأنه يقول احذروا أن تَنْفَكَّ هذه الرابطة بين الإبانة ، والاستبانة ، وليكن البيان دائمًا صِنْوَ التبيين ، فلا قيمة لبيان مُعَلَّق في الهواء ، وإنما قيمته أن يسكن في قلوب مهيَّأةٍ له ، وأن تكون أشد استبانة لأدق ، وأغمض ما فيه ، من صنعة ، حتى لا يَبقى فيه شيء تائه مجهول ، ونلاحظ أن كلمات الجاحظ في الإبانة أخَفُّ من كلماته في الاستبانة ، لأن الاستبانة دائمًا أغمض وأصعب .

نقل الجاحظ عن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس رضي الله عليهم جميعًا وأرضاهم وقرَّبهم وأحبَّ من أحبهم وقرّب من قرّبهم اللهم آمين .

قال وقد سئل عن بلاغة بعض أهله ـ وبنو هاشم أعلم الناس بمواقع

الكلام ـ « إنى لأكره أن يكون مقدارُ لسانه فاضلاً على مقدار علمهِ ، كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلاً على مقدار عقله» قال الجاحظ «وهذا كلام شريف نافع فاحفظ لفظه وتدَّبر معناه» ومدخل هذه الجملة في علم البلاغة أنها تُؤَسِّس للتوازن الواجب بين اللفظ ، والمعنى ، وألاَّ يزيد أحدهما على مقدار الآخر ، وهذا التوازن هو جوهر المطابقة عند المتأخرين ، وجوهر النظم عند عبد القاهر الذي يقوم الأساس فيه على توخي الألفاظ وأحوال الألفاظ وعلاقات الألفاظ على وفق الغرض الذي يقصده المتكلم ، والمعنى الذي أمَّ ، وأن يكون التوافق بين اللفظ والغرض توافقًا متناهيا في الدقة لأن افتقاد هذا التناهى في الدقة هو مدخل الخلل إلى الكلام .

وكلمة محمد بن علي أدخل في باب البلاغة التي هي إبانة عن معرفة من أي نوع كانت هذه المعرفة، وليست الإبانة عن معاني الشعر والأدب فحسب، وهذا هو المعنى الحقيقي للبلاغة ، لأن كلام الله سبحانه وكلام رسوله ﷺ في الذروة من البلاغة وهو إبانة عن حقائق الدين ، ودقائق الشريعة ، والفقه والأحكام ، وهذا واضح وحين نعتبر الشعر والنثر هما باب البلاغة نكون قد قيدنا المطلق وخصصنا العام . ومقدار اللسان حين يزيد عن مقدار العلم في أي باب من أبواب الفكر يتسع الكلام ، وتتغازر الجمل ، ولا تجد وراء هذا الاتساع من المعاني والأفكار ، وعطاء النفس ما يواكب هذا الاتساع ، وإنما تجد فراغات كثيرة تحت الجمل ، وتحت الكلمات ، وتحت الحروف أيضًا ، لأن الكلام الصادر عن فكر سخي يُفعِمُ الكلمات ، والتراكيب والحروف ، وأصوات الحروف ، ومعاطف الكلام ، وكل شيء في ظاهر الكلام وباطنه .

فرق بين أن تقرأ كلامًا تلَذُّ لغته ، ويجري لسانُك بذلاقته ، وعذوبته ، ولا يستفِزُّ عقلك ، ولا يستنفرك ، وإنما تظل معه هاجعًا ساكنًا مسترخيًا ،

رضيَّ النفس ، والبال ، إلا أن يثيرك بما يصدم المعقول عندك ، وربما كان أسلوب الدكتور طه حسين نموذجًا لهذا اللون الذي يزيد فيه مقدار اللسان على مقدار العلم ، لأنه رحمه الله يبهرنا بلغته ، أكثر مما يبهرنا بحجته ، وبرهانه ، ولك أن تجعل العقاد مثالاً للذى يكون مقدار لسانه على مقدارعلمه ، لأنه يحرص على الموازنة الدقيقة بين لفظه ومعناه ، ويحرص على أن يفيدك من كل جملة فائدة يحسن السكوت عليها . وإذا رجعت إلى الوراء ووضَعْتَ بين يديك رسالة لابن العميد ورسالة لأبي العلاء ، وجدت ابن العميد يحدثك كثيرًا ويفيدك قليلاً ، ووجدت أبا العلاء يحدثك قليلاً ، ويفيدك كثيرًا ، وهكذا إذا راجعت رسائل الكتاب من لدن ابن المقفع وعبد الحميد والجاحظ والخوارزمي وغيرهم ، وفى يدك هذا الضوء الهاشمي الجليل ، وجدت أنك في حاجة إلى مراجعة أخرى ، وأنك ستكتشف به مواطن في كلام الكتاب ، كانت غائبة ، وقل مثل ذلك في مقالات السياسيين ، وزعماء الإصلاح ، فرق كبير بين كلام الكواكبي وعبد الله النديم ، وبين محمد عبده ، وجمال الدين ، ومقالات كثيرة تقرؤها في الصحافة وتراها كأنها جسد من الكلمات لا تتحرك ولا تُحرّك،ومقالات كثيرة تتفجّر وتثير، وتغضبُ وتُرْضِي وتستفز ، وتثوِّر قومها ، ليدفعوا غوائل الاستبداد عن ديارهم ، وحسبي هذا وأنتقل إلى الشق الثاني من كلمة سيدنا وابن سيدنا رضوان الله عليهم ورزقنا حبَّهم وحب من أحبهم .

قال رضوان الله عليه : « كما أكره أن يكون مقدارعلمه فاضلاً على مقدار عقله » .

وهذه الكلمة أرجح من التي قبلها ، وهي أقرب إلى العلوم منها إلى الآداب ، وأهم ما فيها أنها توجب قوامة ظاهرةً للعَقْل على كل ما يتحرك به اللسان ، وما يحصّلُه المرءُ من معرفة ، ومن الواجب أن يكون العقل بحدَّتِهِ

ويقظتهِ وصرامتهِ ونفوذهِ مُهيمنًا على كل فكرة يُحصّلها ، ومُهَيْمنًا على كل كلمة يجري بها اللسان ، يمسكه عن كل ما يشاء أن يمسكه عنه ، ويُنْطِقُه بكل ما يشاء أن ينطقه به ، وأن اللسان إذا خرج عن هذا السلطان كان لسانًا ثرثارًا وخطاءً وربما كب صاحبه بحصائده .

ومقدار العلم يزيد بالتحصيل ، والسماع ، والأخذ عن العلماء ، وإذا زاد هذا على مقدار العقل ، ولم تكن للعقل قِوامةٌ تامةٌ على كل ما عندنا من علم ، أدَّى هذا إلى ما يكره محمد بن علي رضوان الله عليه حفيد حبر الأمة ، وحينئذ تكون عقولنا متون معرفة ولن نَسْتطيع أن ننتفع بهذه المتون ، ولا أن نتصرَّف فيها ، لأنها غلبت على العقل ، وليست خاضعة لسلطانه ، ولا مستضيئة بنوره ، وهذه حالة من التحصيل لا يتقدَّمُ بها العلم ، ولا يتحرك ، ولا يعطى إضاءات جديدة ، لسياقات جديدة ، لأن الذي يهيئ العلم إلى ذلك هو سلطان العقل اليقظ عليه ، وتوجيهه له ، وقد تتراجع الحياة الفكرية مع كثرة التحصيل لأن الحفظ المقترن بتراجع العقل قد يُميتُ كثيرًا من جوانب المعرفة الحيَّة ، وهذا أشبه بما ورد في حديث البخارى « مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم » وقد ذكر فيه صلوات الله وسلامه عليه الأرض الأجادب التي تمسك الماء ولا تنبت الكلأ ، يعني تحفظ ولا تستخرج كما ذكر بعض الشراح .

وروى الجاحظ أنه قيل لحكيم « متى يكون الأدب شرًّا من عدمه؟ قال إذا كثر الأدب ، وقلت القريحة » وهذا معناه أن يكون مقدارعلمه فاضلاً على مقدار عقله ، أو أن تكون الرواية أكثر من الدراية ، والأدب في هذه الحالة شرٌّ من عدمه ، الذي هوالجهل ، لأن هولاء الحفظة الذين قلّت قريحتهم ربما أفْسدُوا العلم بنسيان قيوده ، ومحترزاته ، أو خلطوه بما يشْتَبهُ به ، أو أدْخلُوا

عليه آفة من آفات العلم التي تفسده في غيبة العقل الحارس ، والقريحة القوية .

والذي يحبه محمد بن علي هو أن يكون مقدار العقل فاضلاً على مقدار العلم ، وهذا هو الأصل والأساس الذي يقوم عليه منهج البحث عند العلماء ، ويجب أن نذكر أن العقل الذي يجب أن يكون له سلطان على العلم هو العقل الذي غُذي بالعلم ، ووعى الأصول ، وخَبرَها ، وناقش ، ونُوقش ، ورَدَّ ورُدّ عليه ، وأخَذَ وأُخِذ عنه ، وليس هو العقل الفارغ النائم ، لأن هذا العقل الفارغ لا قيمة له ، ولا لكلام يقوله ، ولا سلطان له إلا على الفراغ والفارغين ، ولا يجوز التهاون في هذا لأن العقل الذي يروز المعرفة ، ويتدسَّسُ في باطنها وظاهرها ، وينغل إلى غورها ، ليستخرج ما عساه يكون في هذا الغور ، لابد أن يكون عقلاً لم يَهْجع يومًا ما عن طلب العلم ، وضوال المعرفة ، ولا يسمح له بنقد المعرفة إلا إذا كان في طبقة من كتبوها ، وقد قال أبو حامد الغزالي في كتابه المنقذ من الضلال « لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوي أعلمهم في أصل ذلك ، ثم يزيد عليه ، ويجاوز درجته ، فيطَّلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة ، وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدل عليه من فساد حقًّا » .

ولهذا كانت قراءة كل عالم لباب من أبواب العلم بمثابة غَسْل لهذا الباب من علائق الضعف والكدر ، وبمثابة مراجعة ونَفْض لأوراقه ، وإعادة لترتيب أفكاره ، حتى يرى الباب وكأنه صار شيئًا جديدًا ، وبدت منه أضواء جديدة ، وأعطى أطيافًا جديدة ، وكلما كانت القراءة أعمق ، وكان العقل أكثر يقظة وسخاء ، هدى ذلك إلى استخراجات جديدة ، وبهذا تكون القراءة الحيَّة

كأنها من تمام الكتاب المقروء ، ويصير بها القارئ شريكًا للمؤلف كما نقل الجاحظ .

والعقل الحيّ لا يعطيك ما حصله من كلام العلماء إلا وفيه مذاقة منه ، لأن من شأن العقل الذي له سلطان على المعرفة أن يفرغ شيئًا من طابعه ، على كل ما يلابسه ، وكأنه يَرَى فرضًا عليه لازمًا لكل كتاب يقرؤه أن يستخرج منه لؤلؤة من لآلئه لم يستخرجها قارئ قبله ، وقد رأينا ذلك في أعمال اللاحقين من علمائنا ، فقد كان أحدهم يستخرج من كلام سلفه معنى لم يفطن إليه أحد مع طول قراءة الناس لهذا الكلام ، وتطاول الزمن بين اللاحق والسابق ، وكل هذا منشؤه سلطان العقل الميهمن على العلم ، أو مقدار زيادة العقل على العلم ، واتساع هذه الزيادة بمقدار اتساع علم العقل لأن العقل يرجح بالعلم ، ما دمنا نفكر ونحن نقرأ ، ونفكر فيما نقرأ ، ونراجع ما نحصل ، ونُحَكِّمُ الدراية في الرواية ، وقد نقل الشيخ شاكر رحمه الله عن فيلسوف الصين كلمة في موضوعنا هذا ، قال الفيلسوف « من تعلّم من غير تفكير فهو في حَيْرةٍ ، ومن فَكَّرمن غير تعليم فهو في خطر » والتعليم من غير تفكير ليس بعيدًا عن زيادة العلم عن مقدار العقل ، والتفكير من غير تعليم هو تفكير العقل الفارغ ، والأفئدة الهواء ، وكلمة « خطر » كلمة جيدة وترى كثيراً من الذين يفكرون في مسائل العلم وينتقدون بعقول لم تحكمها تجارب العلماء ولم تصقلها استخراجاتهم واستنباطاتهم ومن غير أن يكتسبوا طبع العلم ، ولم تلق عليهم شمائله ، وأرْدِيَتَه ترى هؤلاء حين ينقدون ويناقشون يهدمون وهم لا يعلمون ولو علموا لكفوا ، ولو راجعوا لرجعوا .

وما دام العقل فاضلاً على مقدار العلم فكل قراءة حيَّة هي إحْيَاءٌ ، وكل قراءة جديدة هي تجديد ، ولذلك لا أجد معنى لكلمة الجمود في حقل الدراسة العلمية ، لأن العقول الفاضلة على مقدار العلم هي في حركة دائبة للمعرفة ، وتقليب دائم ، وتفلية دائمة ، وتحريك مستمر ، وكل هذا من شأنه أن يبعث في المعرفة أضواء جديدة ، وجهات جديدة ، واستنباطات جديدة ، وإنما يكون الجمود في حالة واحدة هي غياب العقول الحيَّة اليقظة التي دأبت على النظر في كلام العلماء ، والحوار المستمر لكل ماتقرأ ، ثم إنها تزداد بهذه القراءة علمًا ، ويقظة ، ويكون تحريكها للمعرفة في كل يوم له وجه جديد ، وله فقه جديد ، وجهة نظر جديدة .

وكلمة الجمود هذه أُلْصِقَتْ بعلومنا ، فهي صناعة غيرنا ، وحالها كحال الإرهاب الذي ألصق بدين أتمّ الله به النعمة على عباده ، هي أيضًا ليست من كلامنا وإن كان منا من يردد هذه وتلك .

والخلاصة أن كل قراءة حيَّة هي تجربة عقل حيَّ تلتقي بتَجْربة عقل حيٍّ هو مؤلف الكلام المقروء ، ولا بد أن يكون التقاء هاتين التجربتين مُفْضِيًا إلى شيء جديد ، ومعطيًا ثمرة جديدة .

والعقل الحيّ هو الذي يقارب ما يقرأ ويزدلف إليه ويداخله ويتغلغل فيه ، ويحسن ملاطفته ، والتأتي له ، حتى يكشف له عن سره ، وقد أدهشني أني قرأت لكاتب فاضل يكتب في أصول البلاغة ، وقد ذكر في مقدمته أنه لا يقرأ هذه الكتب القديمة بروح الاستعلاء كما يفعل الناس ، وهو على حق وقد يدهشك أن كثيرًا من الكتاب يقرأون كلام علمائنا بروح الاستعلاء وأن هذا شائع حتى أن أستاذًا يحمد الله أن برَّأه من هذا الاستعلاء ، وماذا يفهم

هذا القارئ الكريم إن كان يقرأ بروح الاستعلاء؟ وأي شيء عنده دفعه إلى الغطرسة والاستعلاء وهو يقرأ الجاحظ وسيبويه والخليل؟ لا شك أن عناصر من ثقافة الأمم المتغطرسة المستعلية قد تسلّلت إلى هؤلاء فتغطرسوا هُمْ واستَعلوا أيضًا كما تغطرس أساتذتهم ، وسادتهم أيضًا ، وكل مُيَسَّر لما خلق له .

كانت محنة الشعر الجاهلي كما يسميها الأستاذ محمود شاكر نعمة من نعم الله أصابنا بها ومنها خير كثير ، وذلك لأنها دَفَعَتْ الشيخ رحمه الله إلى أن ينقطع للبيان الإنساني ، في الشعر وفى غيره ، يُحلّلُهُ ويتذوقه ويتبين ما فيه حتى يجد بَرْد اليقين في مسألة هذا الشعر ، وحتى يجد برد اليقين في مسألة إعجاز القرآن ، لأن الرابطة بين الشعر الجاهلي والإعجاز لا تخفى ولا تغيب عند أهل العلم ، وكل هذا من البحث البلاغي .

وقد ذكر الأستاذ شاكر انقطاعه للشعر وتأمله للبيان الإنساني في مواطن كثيرة من كتبه ، ذكر ذلك في كتاب أباطيل وأسماء ، وفى كتاب قضية الشعر الجاهلي في كتاب ابن سلام ، وفى مداخل لإعجاز القرآن ، ومقدمة الظاهرة القرآنية لمالك بن نبي ، ومقدمة كتاب المتنبي ، وعنوانه « لمحة من فساد حياتنا الأدبية » وفى الرسالة في الطريق إلى ثقافتنا ، وفى مقالات بيني وبين طه حسين ، والمتنبي ليتني ما عرفته وقد قام الأستاذ الدكتور عادل سليمان بجمع ماتفرق من مقالات الشيخ وضمَّها في سفرين كبيرين تحت عنوان جمهرة مقالات محمود شاكر ونشرته مكتبة الخانجي وهذا عمل جليل جدًّا وقد نبه الأستاذ محمود شاكر إلى أشياء لولاه ما تنبهنا إليها ولا يجوز لمن يخاطب طلاب العلم أو يكتب لهم أن يجهل ما كتب هذا الصادق الكريم رحمه الله وأثابه .

والذي يعنيني الآن هو ما قاله في الإبانة والاستبانة ، والمعاني التي تكون الإبانة إبانة عنها ، لأن هذه المسائل الثلاثة هي جوهر الدرس البلاغي ؛ فليست البلاغة أكثر من معرفة المقاصد ، والأغراض ، وكيف أبان المتكلم عنها؟ وكيف يهتدي الدارس البلاغي إلى سرها؟ ولم أعرف شرحًا لهذه الأصول الثلاثة أوسع ولا أعمق من شرح الشيخ شاكر لها بعد شرح عبد القاهر .

وكان الشيخ شاكر رحمه الله كثير التدقيق فيما يقول ، وفيما يكتب شديد الاحتياط ، لا يعرف التهاون ، ويرى أن أقل قدر من التهاون في التعرف على الفكرة ـ أو في التعبير عنها يدمرها تدميرًا ، وأن شيوع التساهل فيما لا يجوز فيه التساهل من آفات حياتنا العقلية ، لأنه يدمِّر العقول أيضًا .

ولذلك يداخلني كثير من الحذر حين أتعرض لعلمه ، وأخشى أن أقع فيما يسميه الآفات والبوائق ، ولكن لا بد لنا من عرض آرائه ، والتعرف عليها ، وحسبنا ما يداخلنا من الحرص الشديد على سلامة فكره وسلامة منهجه ، والله سبحانه وتعالى يتولى عنا ما وراء ذلك .

ومن كلماته النبيلة التي أحب أن أفتح بها الكلام عنه رحمه الله : « يسمع أحدنا البيت المستجاد من الشعر فتأخذه بغتة هزة ، وأريحية ، ثم يردده في نفسه مرة بعد مرة فربما مَضَتْ الأيام والليالي وهو لا يزال يَتَوغَّلُ في استحسان لفظه وما يتفجر منه من المعاني »[1].

وهذا كلام من عاش منقطعًا يتأمل البيان ، وعرف كيف يتوغل في جهات حسنه ، وكيف تَفتحَّتْ له مغاليقه ، وكيف يقع على ينابيعه التي تتفجر منها

---

(١) جمهرة مقالات محمود شاكر ١١٥٤/٢ .

معانيه ، ومن أدرك ذلك في الشعر فقد أدرك ، لأن هـذا لا يـدرك إلا بحـس القارئ وطبع القارئ ، وعقل القارئ ، وليس مـن أدرك بحـس غـيره ، وطبـع غيره وعقل غيره من الشعر في شيء .

ويذكر الشيخ أن الإبانـة والاسـتبانة قـدرتان مُبْهمتـان ، غامضـتان في بنـاء الإنسان ، ليس لهما مكمن معروف في هذا البناء ، كمـا للسـمع مكمـن هـو الأذن ، وكما للبصر مكمن هو العين ، وإنما هما مغروستان في البنـاء كلـه ، ومن أجلهما كـان الإنسـان مخالفًـا لخلـق الله الآخـر الـذي لم يـرزق هـاتين القوتين من البهائم والأنعام ، ومن أجل غرسهما في البناء كلـه كـان الإنسـان مُنْتَصِبَ القامة طَلْق اليدين ، والساقين .

ويقول « لولاهما لسقط عنه التكليف ، ولأشفق أبونا آدم إشفاق السموات والأرض والجبال ، حـين عـرض علـيهن ربهـن الأمانـة فـأبين أن يحملنهـا ، وأشفقن منها ، وحملها الإنسان إنه كان ظلومًا جهولاً ، ومع ذلك وبما حُمِّل من الأمانة كرّم الله بَنِيه وجَعلَ منهم الأنبياء والصدِّيقين والشهداء وأولى العلم يشهدون مع الله قائمًا بالقسط ، ومع ملائكته أنه لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، فأي شرف هذا وأي تكريم تباركت ربنا وتعاليت »[1] .

ثم ذكر أن هاتين القدرتين توأمان متداخلتان لا سبيل إلى تمييز إحداهما من الأخرى إلا بآثارهما ، وأن تخليص إحداهما من الأخـرى أمـر ممتنـع ، ومن هنا رأى أن يُدْمجهما معًا في كلام واحد ، فجعلهما قدرة واحـدة ، هـي القدرة على البيان إيثارًا للفظ القرآن الكريم « خلق الإنسان علمه البيـان » ثـم شرح عمل هذه القدرة ، وأنه عملان وليس عملاً واحدًا . أحـد العملـين هـو

(١) جمهرة مقالات محمود شاكر ١١٥٣/٢ ، ١١٥٤ .

القدرة على الإبانة ، والثاني القدرة على الاستبانة قال « عملان يتجاذبانها ، الأول عملها في إنشاء الكلام ، وتركيبه ، وإذاعته وهذه هي الإبانة ، والثاني عملها في استقبال الكلام المسموع الآتي من خارج ، ثم تقليبه ، وتفليته ، والتدسس في ثناياه ، وفى أغواره مرة بعد مرة ، وهذه هي الاستبانة »[1].

ثم زاد في وصف الاستبانة وأنها قدرة تتحسَّسُ ما أنشأه غيرها من أحرف، وكلمات ، وجمل وتراكيب ، بما أَنِسَتْ هي من القدرة والدربة على إنشاء مثله ، وتركيبه ، وهذا عمل خفيٌّ وغامض ، موغل في الغموض ، تعسر الإحاطة به أو تفصيله »[2].

وأُنسها من القدرة والدربة على إنشاء مثله هو سر التداخل الشديد بين القدرتين ، والذي أغرى بجعلهما قدرة واحدة ذات عملين ، فعمل الاستبانة مؤسس على الخبرة بعمل الإبانة ، وهذا قريب من قول الجاحظ إن المفهم لك والمتفهم عنك شريكان ، وقدرة المتفهم تستمد من قدرة صاحبها ، من حيث هو مُفهم ، وقد ذكر الأستاذ شاكر في غير هذا المقام أن الناقد أديب مضاعف ، ولو لم يكن كذلك لسقط نقده ، وهذا قريب من كلام أبي حامد الذي لا يجيز نقد المعرفة من الذي هو دون مؤلفها ، ولا من المساوي له ، وإنما يجب أن يزيد ، ويتجاوز درجته فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة .

ثم آثر الشيخ شاكر لفظ التذوق على لفظ الاستبانة وقال في سبب ذلك :

« والذي حملني على أن أُوثر هذا اللفظ ، وأجعله دالاً على العمل الثاني ، من أعمال القدرة على البيان ، وهو الاستبانة ، هوأنّى وجدتُ نفسى في

---

(١) جمهرة مقالات محمود شاكر ١١٥٥/٢ .

(٢) المرجع السابق ١١٥٩/٢ .

عمل الاستبانة عندي ، وأنا أتأمله ، أشبه بعمل جارحة اللسان في تذوق الطعوم مرة بعد مرة ، ثم أشبه بما يتسّم به عمل اللسان في التذوق ، من سرعة الفعل ، وسرعة انقضاء الفعل ، وسرعة الحكم على الشيء الذي وقع عليه الفعل أي هذا الشعور الخاطف بالحلاوة ، أو المرارة ، أو الملوحة ، أوالغضاضة ، أو اللذع ، وسائر مايتولى اللسان الحكم عليه من طعوم الأشياء»[1].

ثم إن اللسان هوأداة العمل الأول الذي هو الإبانة ولا سبيل إلى الاستغناء عنه ، لأنه هو«المبلغ عنها كل ما تنشئه من كلام . . فكذلك صار عمله في النطق ، وفى التذوق عملين أخوين شقيقين ، متعانقين ، ثاويين في وطن واحد» .

ولم أعرف أن الأستاذ محمود شاكر استعمل فيما كتب كلمة منقولة إلينا من كلام الآخرين ، ولم أسمع منه لفظة جَرَت على لسانه ، من هذه الألفاظ التي صارت دارجة شائعة في الكتب وفى الطرقات ، وقد كان يعلن فيما يكتبه أنه يخاصم مناهج الآخرين ، ويرفضها ، رفَضا قاطعًا ، ثم نراه هنا شديد الحفاوة بكلمة التذوق ، وهي مما تساقط إلينا من هذه المناهج كما قال ، ويقول في بيان ذلك «وقد أصاب كتابنا وأدباؤنا المحدثون قدرًا عظيمًا من التوفيق حين جَرَى لفظ التذوق على ألسنتهم ، متأثرين بما يقابله في الأدب الأوربي الحديث» ثم يقول ولكن من العجب العاجب عندي أن يقع هذا اللفظ في اللغات الأوربية الحديثة ، من أين جاءهم؟ وأنا شديد الشك في أن يكون أغتام الأعاجم وأجلافهم في القرون الوسطى قد أصابوا هذا القدر

---

(١) جمهرة مقالات محمود شاكر ١١٦٧/٢ .

من التوفيق اللطيف الخفي من عند أنفسهم ، ولاأظن ينفعهم شيئًا زعمُهم أنهم ورثة آداب يونان الأوائل ، وورثة حضارتهم ، لأني لم أقف في قراءتى على شىء يدل على أن عظماء اليونان قد قالوا في مباحثهم عن الشعر والخطابة واللغة تذوق الشعر ، أو تذوق الجمال ، أو تذوق الفن ، ولو كان كذلك لوجدنا أثره في كتب أرسطو وأفلاطون وغيرهما من الفلاسفة . . . وأكبر الظن أن هذا قد انحدر إليهم مع ما انحدر إليهم من لسان العرب في الأندلس ، أو في غير الأندلس ، حيث كان كتابنا العرب القدماء ، بل عامة الناس أيضًا يكثرون من استعمال لفظ الذوق السليم ، ثم يسندون إليه الفضل في أمور كثيرة منها الحكم على ألفاظ الشعر والنثر »[1].

وأنا أكره الإطالة في النقل لأن الإطالة تغيِّب الكاتب ولاأجد فيها بأسًا إذا كان الذي يُسْتَحضر هو قلم الأستاذ محمود شاكر رحمه الله وقد حاولت كثيرًا أن ألخص فكرته ولكنها لم تكن في تلخيصي كالذي أرادها في كلامه فآثرت أن أذكرها بلفظه ما دام سياق الكلام يوجب ذكرها .

يقول في عمل الإبانة وهو إنشاء الكلام شعرًا أونثرًا ، وإدارة اللغة بحروفها وكلماتها ، وجملها ، وتراكيبها على المعاني الجائلة في النفوس ، وعلى وفقها حتى لا يَنِدَّ منها شىء ، ولا يضاف إليها شىء ، لأن هذه المعاني الجائلة في النفوس هي ذوات الأنفس ، المنشئة للكلام ، والكلام دال عليها ، وعلى هيئاتها ، وسمتها ، وأحوالها ، التي تبين بها من الناس جميعًا كما تدل الملامح ، والهيئات الحسيَّةُ على أصحابها ، وهذه الدلالات الحسيَّة لا تختلف ، ولاتلتبس ، وكذلك اللغة الدالة على المعاني الجائلة في النفوس ،

---

(١) جمهرة مقالات محمود شاكر ١١٦٩/٢ .

تدل على أصحابها دلالة لا تختلف ولاتلتبس قال رحمه الله : « وعمل الإبانة هو إنشاء الأحرف والكلمات والجمل وتركيبها تركيبًا دالاً على المعاني الجائلة في الضمير المستور ، على الهيئات الظاهرة ، التي يشف عنها هذا البناء الذي تكمن فيه ، ثم تخرج جميعها حاملة آثارًا مُفْصِحة عن صاحبها المتميز عن إخوانه من البشر بخصائصه الدالة عليه وعلى تفرده ، وهذه الآثار حاضرة في الكلام المركب حضورًا مستكنًّا في غضونه ، أو عالقًا بأحرفه ، وتركيبه ، أو ناشبًا في ثنايا الكلام وفى طواياه ، وفى أغواره القريبة والبعيدة »[1].

المعاني الجائلة في النفوس هي التي تحمل الآثار الدالة على صاحب الكلام ، وتميزه من البشر بخصائصه ، وأحواله الفردية ، والصعوبة تكمن في التعرف على هذه المعاني الجائلة في النفوس ، لأنها مدسوسة في أماكن في اللغة ، والحروف ، والكلمات ، ومعاطف الكلمات ، أو ناشبة في ثنايا الكلام ، وفى الطوايا ، والأغوار البعيدة والقريبة ، وأي ترويض لازم للسان ، والحس حتى يتَتَبَّع هذه المكامن الخفية والمطوية ليستخرج خاطرة من هنا وسانحة من هناك ، ثم إن الناقص في هذا كالعادم له كما كان يقول الباقلاني ، لأنه ما دام لم يستوف من اللغة الدالة صورة المعاني الجائلة التي هي صورة المتكلم ، أخرج صوره ناقصة ومشوهة ، وغير دالة على خصائصه المميزة له من بين سائر البشر ، وصار كل عمله هدرًا .

ولا شك أن هذا الكلام يشرح المطابقة عند البلاغيين ، ويشرح النظم ، وأن إنشاء الأحرف ، والكلمات ، والجمل والتراكيب على وفق المعاني

---

(١) جمهرة مقالات محمود شاكر ١١٦٩/٢ ، ١١٧٠ .

الجائلة في النفوس هو التوخي يعني الاختيار في اللغة على وفق الأغراض والمقاصد ، وأن الأغراض والمقاصد هي المعاني الجائلة في النفوس ، وهذا ظاهر ولكنك لا تجد في كلام الناس كلامًا يقول إن هذه المعاني الجائلة في النفوس هي ذوات الأنفس ، وهي السَّمْت المميِّزُ والوَسْمُ الذي لا يَلْتبس ، وظني أن عبد القاهر سكت عن هذا مع صوابه حتى لا ينظر إلى الكتاب العزيز من هذه الزاوية ، لأن هذا الكلام من صميم بلاغة النفس البشرية ، وكلام الله ليس كمثله شيء سبحانه وأنا شديد الحرص على التعرف على ما به يعرف ذات الكاتب والشاعر . ولا شك في أنها هي أحوال نفسه المطلة علينا من كلامه ، ولكن ما هي هذه الأحوال؟ وكيف نعرفها؟ هل هي المعاني وأجناسها وأنواعها ، وكيف تلتقي وكيف تختلف ، وكيف تتقارب ، وكيف تتباعد؟ وهي ذاتها الأغراض ، والمقاصد كما يقول عبد القاهر؟ أم هي المعاني وهيئاتها وصورها ، وخصوصياتها ، كما يقول عبد القاهر أيضًا؟ أم هي كل ما يجول في النفس كما عبر الشيخ شاكر ، واستخدم كلمة « الجائلة » لأنها تمور وتتحرك ولا تسكن ، يقف الشيخ شاكر في نص بالغ الأهمية ليحدِّث عن هذه المعاني الجائلة ، والتى جعلها سَمْتًا لقائلها ، وعنوانًا عليه ، فلا يلتبس بغيره ، وإن تكاثر المتكلمون ، لأنها آية الله في الإنسان .

يقول رحمه الله في بيان ذلك : « هي آلاف مؤلفة ، وحشود حاشدة ، وجماهير غفيرة ، وموج لجيّ من أعمال الغرائز ، والطباع ، والسجايا ، والشيم ، والشمائل ، والعواطف ، والشهوات ، والأهواء ، والنوازع ، جموع بعد جموع تجيش في نفس صاحبها من بين ثائر مُتَفَجِّر ، وهامدِ الأنفاس ، كلهم لهم عليها ـ يريد الإبانة ـ حق لازم ، لأنه جزء لا يتجزأ من ضمير

صاحبه ، وغيبه ، وحقيقته ، التي يتميز بها ، وينفرد عن سائر إخوانه ، من البشر كلهم يطالبها أن يستعد للبيان عنه ، إثباتًا لوجوده ، وهي لاتملك إلا أن تستجيب لكل طالب حق ، واستجابتها أن تتهيَّأ هيئة تعين على تمييز صاحبها ، وانفرداه عن غيره ، وتعبِّئُ قدرتها على الإنشاء والتركيب تعبئة تجعلها عند الحاجة صالحة للدلالة على كل منهم ، وعلى وجوده أو حضوره»[1].

لا شك أن هذه الحشود الحاشدة هي ثراء الكلام ، وهي المعاني ، وهي التي يعلو الكلام بها درجة فوق درجة ، وهي أصل البلاغة ، وإذا وُجِدَتْ وُجِدَت البلاغة ، وإذا غابت غابت البلاغة ، إلا في مثل قولنا زيد ينطلق ، وغيبة الحديث عن هذه الحشود الحاشدة وتلخيص الكلام عنها بالأغراض والمقاصد غيّب عنّا كثيرًا من ثراء وزخم الدرس البلاغي . وقد كرر الشيخ بيان ذلك بشيء من الإيضاح الأكثر ، فأضاء المراد بالغرائز والأهواء والشيم أو فسَّرها بأنواع من العواطف ، والمشاعر ، كالرضى والغضب ، والصدق والكذب ، والصبر والجزع ، وأفاض في هذا وأطال ، في نص جليل أنقله مع طوله . لأن هذا من الكلام النادر في الدرس البلاغي والأدبي مع أنه جوهر البلاغة والأدب .

قال رحمه الله :

«خليط هائل يموج بعضه في بعض ، من الحب والبغض ، والصدق والكذب ، والشك واليقين ، والعفة والدعارة ، والود والمداهنة ، والاستقامة والمراوغة ، والغضب والرضى ، والتقوى والفسق ، والشجاعة والجبن ،

(١) جمهرة مقالات محمود شاكر ١١٥٦/٢ .

والنشاط والسأم ، والطمع والقناعة ، والصبر والجزع ، والألم واللذة ، والحزن والفرح ، والغش والأمانة ، والأنفة والاستكانة ، والطيش والحلم ، والطلاقة والعبوس ، والسَّفه والوقار ، والخِسَّة والنبل ، والعقل والجنون ، والحقد والصفاء ، والجفاء واللين ، والفطنة والغفلة ، والسكينة والهلع ، والحياء والقحة ، والدماثة والشراسة ، والقسوة والرقة ، والزهو والتواضع ، والخبث والطيبة ، ألوف مؤلفة من الخواطر والهواجس والهواتف والوساوس ، والنوازع والشهوات ، والغرائز والطباع ، والأهواء والعواطف ، والشيم والشمائل ، وبحور متلاطمة من أفكار مركبة ، وصور مصوَّرة متجددة الظهور والاختفاء ، والثورة والخمود ، تتصادم وتتآلف ، وتتزاحم وتنقص ، وتضيء وتنطفئ ، وتثب وتغوص ، وتعدو وتدب ، وتعْوى وتُغَمْغِم وتُقْدِمُ وتهرب . . هول هائل يجول في النفس ليلاً ونهارًا»[1].

أطلت النقل مع أني اكتفيت بشيء عن شيء وهذا هو أصل الكلام في الشعر والنثر والبلاغة وكل ما يأتي بعد ذلك هو الإبانة عن هذا الموج اللجيّ والاستبانة أو التبيين أو التذوق ، وهذا كله مؤسس على هذا الخليط الذي يموج موجًا ، فإذا كان هذا شاحبًا في النفس كان ما يؤسَّسُ عليه شاحبًا ناضبًا ، ولا معنى له ، ولا قيمة له ، وإذا كان هذا قويًّا متغازرًا متدافعًا في النفس كان كذلك قويًّا متغازرًا متفجرًا في اللغة والبيان ، وكل دراسة للشعر ، وكل تحليل للكلام ، لا تكون غايته هو الكشف عن هذه الأهواء ، والغرائز ، والشيم ، التي تلخصها تلخيصًا مُخِلا في قولنا المعاني والأحوال ، هي دراسة ضائعةً ضَلَّت غايتها ، والواجب أن يكون كل تفقد للغة والجمل ،

---

(١) جمهرة مقالات محمود شاكر ١١٦٢/٢.

والكلمات ، والأحوال ، باحثًا عن خبئة من خبايا النفس ، وخصوصيات النفس ، وَمُسْتَشْرِفًا نحو هذا البحر اللُّجيِّ يرى فيه ما يظهر ، وما يخفى ، وما يضىء ، وما ينطفئ ، مستكشفًا هذا الهول الهائل الذي يجول في النص كما كان يجول في النفس .

وحين يتحول هذا الموج اللجي المختلف والمتباين والمُلْتقي والمتدافع إلى اللغة تكون أحوال اللغة معه كأحواله في النفس ، أي أنها تعلن منه ما هو معلن ، وتُسِرُّ منه ما هو مُسْتَسِرَّ ، تظهر منه ماتُظهر ، وتُضمر منه ما تُضمر ، ويدق فيها ما يدق في النفس ، ويغمض فيها ما يغمض في النفس ، وهذه هي سريرة البيان التي هي صورة من سريرة النفس التي لا يلتبس فيها زيد بعمرو . وكان عبد القاهر يدرك ذلك ويشير إلى أن الذين جَفَتْ طباعُهم عن معرفة البلاغة ، إنما جَفَتْ لأنهم لم يعلموا « أن ههنا دقائق وأسرارا طريق العلم بها الرويَّةُ والفكر ، ولطائف مستقاها العقل ، وخصائص معان ينفرد بها قوم قد هدوا إليها ، ودُلّوا عليها ، ورُفِعت الحجب بينهم وبينها ، وأنها السبب في أن عرضت المزيَّةُ في الكلام ، ووجب أن يفضل بعضه بعضًا »[1] .

الآلاف المؤلفة من الغرائز ، والشيم ، والطباع ، والموج اللُّجيِّ ، والخليط الهائل من الرضى والغضب ، والحب والكره ، والصدق والكذب ، والتقوى والفجور كل ذلك انتقل من منبعه في النفس إلى الحروف ، والكلمات ، والتراكيب فصار فيها دقائق ، وأسرارا ، ولطائف ، وخصائص معان تُستقى بالعقل . وهذا ظاهر ، ثم إنها هي السبب في أن عرضت المزية في الكلام

---

(١) دلائل الإعجاز صـ ٧ .

حتى صار بعضه يفضل بعضًا ، فلا وجه للمزية ولا جهة لها ، إلا هذا الموج اللُّجيِّ ، وهذه الغرائز ، وهذه الشيم ، وهذه الأحوال ، وهذا في غاية الأهمية ، لأنه يعني أن هذه الأحوال وهذه الشيم ، وهذه الأهواء ، وهذه المعاني كل ذلك هو الضالة ، التي نَبْحثُ عنها في الشعر ، والكلام ، وهي لا غيرها ، التي يفضل بها الكلام ، ويعلو بعضه فوق بعض ، ثم إن الله سبحانه وتقدست أسماؤه الذي خلق النفس الإنسانية وغرس فيها القدرة على أن تتخلق فيها هذه الأحوال والهواجس ، والغرائز والآلاف المؤلفة والبحر اللجيّ ، غرس فيها في مقابل هذا ، القدرةَ الفائقةَ على أن تُعبِّر عن كل هذا العالم تعبيراً وافيًا غير منقوص ، وهي حين تعبر عن ذلك إنما تعبر عن ذات نفسها ، يَعْنِي هي حريصة كل الحرص أن تكون شياتها ، وملامحها ، وسَمْتُها كل ذلك وافيًا غير منقوص ، في كلامها وكل ذلك يدعو إلى مزيد من الحرص على حسن الدلالة ، وتمامها لأن الدلالة حينئذ دلالة على ذات النفس .

ولا بد أن تكون اللغة التي علَّمها الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام يوم خلقه قادرة على أن تحمل في حروفها ، وكلماتها ، وتراكيبها ، وأصواتها ، كل هذا الموج المتلاطم ، ولا بد أن تكون قدرات اللغة ، وطاقاتها المبينة عَدْل هذه البحور المتفجرة داخل النفس ، ولو نقصت قدرة الإنسان على الإبانة وقدرة اللغة على أن تحمل هذه الأوزار التي في داخل النفس لكان ذلك نقصًا في البيان ، الذي علمه الله سبحانه وتعالى للإنسان ، ويستحيل وقوع النقص في النعمة التي منّ الله بها على عباده وأَجِدُ رابطة خفية بين « علم آدم الأسماء » ، و« علمه البيان » ، وذلك بتكرار كلمة « علّم » في المعنيين وإذا كان هذا الموج اللجيّ في النفس أمرًا عجيبًا لا يُحاط به ، ولا يقادر قدره ، فلا بد أن تكون طاقات اللغة المعبرة عنه أيضًا أمرًا عجيبًا

وغريبًا لا يحاط به ، ولا يقادر قدره ، وقول الشافعي هذه لغة لا يحيط بها إلا نبي فيه معنى من ذلك ، لأن النبي يحيط بالوحي وليس بالعلم المكتسب وحده .

وقد غاب هذا عنا ، ونحن نتحدث عن الفنون البلاغية ، واكتفينا بالحديث عن أقسام التشبيه ، والاستعارة ، والجناس ، والطباق إلى آخره وهذا مهم لا يجوز التفريط فيه ، ولكن ليس من المقبول أن نُغْفل طاقات هذه الفنون ، وقدراتها على حمل ما تحمله من هذا البحر اللُّجيِّ ، وهذا الموج المائج ، وهذا الحشد الحاشد ، لأن هذه القدرات هي جوهر اللغة ، وكل فن بلاغي صغيرًا كان أو كبيرًا هو وسيلة من وسائل اللغة التي تعين على بيان معنى من المعاني لا يمكن لفن آخر أن ينهض به ، ففى التشبيه شيء ليس في الاستعارة ، وفى الجناس شيء ليس في السجع ، ولو وجد في اللغة طريقان يؤديان معنى واحدًا لا يختلف لكان الثاني منهما عَبَثًا ، وقد اتفق العلماء على خلو اللغة من العبث . وتبقى قدرات الناس متفاوتة في ثراء هذه المعاني ، وفى القدرة على الإبانة عنها ، وفى القدرة على تبيُّنها وتذوقها .

وأكرر أن النظم الذي شرحه عبد القاهر في الكتاب كله ، وليس في تعريفه فحسب ، لا يتجوّل إلا في هذه المنطقة ، التي ترى فيها الإنسان بين معان تمور في نفسه ، ولغة يملك منها ما يملك ، ويَنِدُّ عنه منها ما يَنِدُّ ، وبمقدار قدرته على أن يجعل لغته بحروفها ، وكلماتها ، وجملها ، قادرة على الإبانة عن ما يجده في نفسه ، تكون منزلته في البيان .

وليس من التكلف في شيء أن أُشير إلى هذه المقاربة الشديدة بين كلام الإمامين عبد القاهر وشاكر ، ولم أجد أحدًا من الشراح لا من القدماء

ولا من المحدثين شرح كلام عبد القاهر في هذه المحاور الثلاثة كما شرحه الأستاذ محمود شاكر ، وكان شديد الحفاوة بعبد القاهر حتى إنه ذكر أن عبد القاهر لم يضع بلاغة اللسان العربي فحسب ، وإنما وضع أصول بلاغة الإنسان ، بل إن الشيخ شاكر كان شديد الحفاوة بكل من له صلة بعبد القاهر . وكلامه هذا في بيان بلاغة الإنسان عربيًّا كان أو غير عربي .

ويرى الأستاذ شاكر أن طول الملابسة ، والمزاولة ، والتَّفَقّد ، والمراجعة ، للحروف ، والكلمات ، والتراكيب ، والجمل ، وحسن التلقي لكل ما فيها لا يفضى بنا إلى معرفة ذات الشاعر فحسب ، وإنما يتجاوز ذلك إلى معرفة بعض ملامحه الحسية ، حتى إنه لتقوم لصاحب الكلام في نفسك صورة حسيَّة وكأنك تراه وهو يتكلم بالكلام الذي بين يديك ، ترى عبوسه أو طلاقته ، ورضاه وغضبه ، وترى بسطه أو كزازته ، وكأنه قد انتصب حيا أمامك ، وكأن تفقدك وحسن تلقيك لكلامه قد نشره من قبره ، وأعاده إلى اللحظة التي حدَّث فيها بالذي بين يديك من كلام ، وهذا ليس في الشعر والأدب فحسب ، وإنما في كل ما أُثر عنهم من حديث وخبر ، وبهذا تكون هذه القراءة المُمْتعة والشاقة استحياء لزمان أصحابها ، واحضارا لبيئاتهم ، وأحوالهم ، وما كان يكون بينهم من صفاء وكدر ، وحب ورضى ، وإقبال وإدبار ، وسلم وحرب ، وخصب وجدب ، إلى آخره . ويؤكد على ضرورة أن نعيد بناء أنفسنا على أصل من التذوق ، والتدقيق والتوغل في صميم ما نقرأ ، ولا بد من اليقظة الكاملة في تناولنا لكل أمر نتناوله وأن هذا هو ما بُنيت عليه حضارتنا ، وأن الغفلة لا تفضي إلى نفع ولا إلى خير .

يقول رحمه الله في نص طويل نافع في كتاب قضية الشعر الجاهلي في طبقات ابن سلام :

« فواجبنا اليوم أن نعيد بناء أنفسنا على ما بُنيت عليه حضارتنا من دقة التذوق ، وأن يكون التذوق أساس عملنا الأدبي ، في آثار أسلافنا ، وأن نلاقي كلمات أخبارهم التي أُثِرَتْ عنهم بالفحص الناقد ، وأن ننفض غيب كلماتهم بالتذوق ، ونتوسم بالتَّفَرُّس في معاطفها ، ثم نستجليها ، ونسألها ، ونستخبرها عن هذه السرائر المغَيَّبة ، المحجوبة في طواياها ، وإلا يكن هذا حقًّا محضًا فحدثني إذن كيف يمكن أن يقع التمييز بين شعر امرئ القيس وشعر زهير والنابغة ، وشعر أبي تمام وشعر البحتري ، ومن شئت من الشعراء؟ كيف كان ممكنًا ذلك التمييز في مدة حياتهم ، وكيف يكون ممكنًا بعد موتهم ، إلا بهذا العمل الدائب في ممارسة الكلمات ، واستنباط الخفي من أسرارها ، وتذوق أساليبها ، وتسمّع الركز الخفي في جرسها ونبرها ، ثم تولج الحس إلى كُنه كل حرف في بنائها ، وتركيبها ، بلمح متيقظ ، متلقط ، بصبر حتى تنشأ في النفس صورة واضحة لكل منهم ، يبين بها من سواه ؛ وحتى يتردد في السمع ، صدى متميز يعرف به صوت أحدهم من صوت صاحبه؟ وإذا بلغ التذوق هذا المبلغ لم يكد المرء بعد ذلك يُخطئ الصورة البيِّنة الملامح ، ولا يكاد يستنكر الصوت المتفرد بترجيعه ونغمته ، وإذا قرأت شعر أحدهم وجدت صاحبه بعد ذلك حيّا يروح ويغدو في جميع أحواله على ضروب من الهيئة ، تعرفها النفس معرفة التبين والتمييز ، وكل بحث أدبي أو تاريخي سوف يكون عندئذ استحياء لأشباح مَضَتْ من رسوم كلمات بقيت ، وسر هذا كامن في التذوق وفى تذوق الكلمات خاصة »[1].

---

(١) قضية الشعر في كتاب ابن سلام صـ ٥٤ .

وهذا كلام شريف جدًّا فاحفظه واستمسك به كما كان يقول الجاحظ واعلم أن الشيخ شاكر لم يحدثك فيه بعلم قرأه ولا بسماع سمعه ، وإنما هي تجربته التي لم يجد مخرجًا له من محنة الشعر الجاهلي إلا بها ، ولهذا قلت في أول كلامي أن محنة الشعر الجاهلي كانت نعمة من نعم الله علينا لأنه استخرج منها علمًا جليلاً ، وتنبَّه بها إلى بلاء لا نزال في وَصَبِه ؛ ثم اعلم أن هذا الضرب من القراءة وإحسان القراءة التي تقرأ بها الشعر كأنك تراه لم يكن بدعًا ، ولاجديدًا ، وإنما تاريخ الصحابة يدل على أنهم كانوا يقرأون هذه القراءة ، وأنهم إذا قرأوا آيات الثواب كأنهم يجدون ريح الجنة ، وإذا قرأوا آيات العقاب كأنهم يحسون لفح النار ، ثم إنه لا يدرك الصواب إلا بالجد وهذا هو طريقه .

* * *